شهرية العلم

العلوم عند العرب

اختلف الناس كثيراً فى تقدير ما للمدنية العربية من أثر فى العلوم والفلسفة ، فمنهم من يرى أن العرب لم يكونوا فى الواقع إلا ناقلين عن اليونانيين وأنهم لم يضيفوا إلى علم هؤلاء إلا شيئاً قليلا لا يؤبه له ، وأنهم لو لم يقوموا بنقل المؤلفات اليونانية إلى العربية لوصل العلم اليونانى إلى أوربا بطريقة أخرى كما حدث فى أول النهضة الأوربية . ويرى آخرون أن للعرب فضلا كبيراً فى إحياء هذا التراث العلمى ، وأنهم لم ينقلوه فحسب بل كان لهم فضل شرح الفلسفة اليونانية ، وأنه لا يكفى لفهم أفلاطون أن تعرف اليونانية بل يجب أن تعرف قدراً كبيراً من الفلسفه ، وأن فهم الأوربيين لهذه الفلسفة اليونانية لم يكن ليتم لولا التعليقات الدقيقة والشروح الوافية التى قام بها العرب .

ومما زاد هذه المسألة تعقيداً ما أحاط بها من عوامل الكرامة القومية والاعتبارات الدينية. فمن الغربيين من لا يعترف للعرب بفضل ما على المدنية كأنهم عالة على الفكر البشرى . ولعل ذلك بقية من آثار القرون الوسطى حين كان العرب خطراً على أوربا وكان الاسلام خطراً على المسيحية ، وحين كان بعض المسيحيين يعتقدون أن الطعن فى الاسلام ضرب من ضروب التقوى . وكذلك أسرف بعض الشرقيين فى تقدير فضل العرب على العلوم لما فى ذلك من إرضاء للعزة القومية . وليس من شأننا أن نتأثر بمثل هذه العوامل ؛ فدراستنا موضوعية بحتة ، والوطنية العربية اليوم أهدأ أعصاباً وأثبت أسساً من أن تتأثر بمثل هذه البحوث أو هكذا يجب أن تكون . والغربيون أبعد ما يكونون اليوم عن أن يخشوا الاعتراف بما للاسلام من فضل فلن يضير ذلك ما بقى من المسيحية فى قليل أو كثير .

ومن السخف أن تتخذ مثل هذه

المسائل مجالا للمفاضلة بين الأمم أو بين المفكرين فى الأمة الواحدة . فالنتاج الفكرى نتيجة لعوامل كثيرة جداً ، أهمها درجة نمو العقل الانسانى فى العهد الذى يعيش فيه العلماء ، وإنما يتفاضل الرجال بما فيهم من صفات عقلية وشخصية خاصة بهم بصرف النظر عن قيمة ما ينتجون . ولعله لم يبق من طب أبقراط أو الرازى شئ فى الطب الحديث ، وهما مع ذلك يعدان فى الطبقة الأولى من الأطباء .

ليس الغرض من هذا البحث المفاضلة بين أمة وأخرى ، وإنما غايتنا منه أن نضع المدنية العربية فى موضعها من التاريخ العام؛ فهى لم تكن ظاهرة شاذة قائمة وحدها بل هى جزء من تطور الفكر البشرى ، وأثر العرب فى هذا التطور هو مفخرتهم الكبرى. ولا يقاس هذا الأثر بما تركوا من مبتكرات علمية ، بل يجب أن يقاس بمعيار آخر سنبينه فيما بعد .

ولتقدير هذا الأثر حق قدره طريقان: طريق البحث فى التفاصيل وفروع المسائل ، وطريق آخر هو دراسة التاريخ العام للتفكير العلمى وتحديد موقع المدنية العربية منه .

أما الطريق الأول وهو ما اتبعه الباحثون حتى الآن فهو عندى طريق غير مجد ، وذلك أن ندرس المؤلفات اليونانية والعربية وأن نتبين ما زاد العرب فى العلوم اليونانية . ومما لاشك فيه أن مثل هذا البحث يدلنا على أن العرب علموا من مسائل الضوء والحساب والأمراض والعقاقير والكيمياء ما لم يكن اليونان يعلمون عنه شيئاً ، ولكن مجموع هذه المسائل على أهميتها لايعد شيئاً كبيراً ولايمكن استقصاؤها . ولو استطعنا أن نقوم بهذا الاستقراء فانه على صعوبته لن تكون له قيمة فى التدليل على أثر العرب فى العلوم . فمن السهل مثلا أن نثبت للرازى فضل التمييز بين الحصباء والجدرى ، ولذلك أهميته فى تاريخ الطب ، ولكنه لا يساعد على تقدير قيمة العلم العربى فى جملته .

والذى يجعل هذا البحث التفصيلى عقيما اعتبارات تتعلق بطبيعة العلم فى القرون الوسطى نورد بعضها فيما يلى :

١ — لم يكن الابتكار غاية من غايات علماء ذلك العصر ، فقد كان للعلم حدود واضحة ، وكان للتفكير قواعد ثابتة لا يحيد عنها ، وكانوا يعتقدون أن كل حقيقة جديدة يجب أن تقع داخل هذه الحدود ، وكانت غاية العلم أن ينجح العالم فى تفسير كل جديد تفسيراً يدخله فى حدود

النظريات القديمة . فاذا اختلفت المشاهدات والمنطق وجب أن تؤول المشاهدات ؛ لأن المبادئ الفلسفية لا يمكن بداهة أن تكون خاطئة . فليس من المدهش ألا يكون العرب مبتكرين ، بل إن الابتكار كان يعد حينذاك بدعة ونقصاً وخروجاً على العلم .

٢ — كان من أخص صفات علماء القرون الوسطى من عرب أو لاتينيين الايمان بالمنقول وتقديس كل ما ورد عن الفلاسفة القدماء ، وكان للقدم وحده قيمة كبيرة ، وكان طبيعيا أن يجتهد كل عالم فى أن ينسب آراءه هو إلى القدماء ، وهذا مادعا المؤلفين الغربيين أن ينسبوا إلى جابر بن حيان كثيراً من آرائهم فى الكيمياء وإن لم تكن من أعماله . والكيمياء كانت فى أشد الحاجة إلى أن تدعم نظرياتها بمثل هذه الوسيلة ؛ لأنه لم يكن لها سند من الواقع ، ونسبة الرأى إلى القدماء تضفى عليه ثوباً من الحكمة . ولم يكن ذلك منهم ادعاء أو كذباً أو تمويهاً مقصوداً ، ولكنها عقلية خاصة . والمؤلفون فى القرون الوسطى كانوا يعتقدون أن الرأى الذى يرونه حقا لا بد أن يكون قد عرفه القدماء وإن لم يصل إليهم نص يدل على ذلك ، وكانوا يرون أن الحكمة شائعة بين الحكماء ، فكانوا لا يرون غضاضة أن ينسبوا إلى أفلاطون من الحكمة ما لم يخطر له على بال ولعلهم كانوا يرون أن الرأى الصائب إن لم يكن قاله أفلاطون فقد كان يصح أن يقول به ، وكان يستوى عندهم أن يقولوا قال أفلاطون أو قال بالبناس أو قال أحد الحكماء ، كل ذلك عندهم بمعنى إذ المهم أن ينسب الرأى إلى فيلسوف قديم . والمحدثون تزعجهم هذه العقلية الغريبة التى لا تعنى بالدقة فى التفكير ولا فى النقل ولكنها صفة عامة فى علماء القرون الوسطى ، يستوى فى ذلك العرب وغير العرب ، وذلك يجعل من المستحيل تحقيق ما ينسب إلى المؤلفين وتحديد ما هو عربى وما هو يونانى أو لاتينى .

٣ — من المستحيل أن ينقل علم من أمة إلى أخرى إلا أن تكون هذه الأمة قد بلغت من التقدم الفكرى ما يؤهلها لاستيعاب العلم المنقول . ومن الصعب أن يتصور الانسان أن أمة من الأمم تعنى بالعلم والفلسفة كما عنى العرب وتشغف بهما كما شغفوا دون أن تصبح هذه العلوم جزءاً من حياتها . إنما ساءت سمعة العرب العلمية عند من يظنون أن الشرح والتعليق أعمال ثانوية لاقيمة لها . وهو سوء فهم لطبيعة العلوم فى القرون الوسطى ؛ إذ

الواقع أن الشرح والتعليق كانا كل مظاهر العلم فى ذلك العصر، ولم يكن للعلم أن يتعدى الشرح والتعليق، وكان الذى يجرؤ على أن يجاهر برأى جديد لا يعد عالماً مبتكراً وإنما يعد غير عالم بما قال الأولون، وهو عندهم الجهل كل الجهل. والروايات مستفيضة عن تمكن هذا التفكير العجيب من أهل القرون الوسطى. فقد ذكروا أن أحد أطباء جامعة بادوا عرض على أستاذه أنه يريد أن يبحث مسألة بعينها، فقال له أستاذه: «لاتتعب نفسك فقد قرأت كل ما كتب أرسطو وجالينوس فلم أعثر على شئ يتعلق بهذه المسألة، ومن العبث أن تبحث على شئ لم يعرفه أرسطو ولا جالينوس.» فهذا العيب العقلى ليس مقصوراً على العرب ولا صفة خاصة بهم، ولكنه عيب عام ناشئ عن طبيعة العلم فى ذلك العصر، وهى عقلية ليست عربية ولا غربية، بل هى عامة فى تاريخ كل أمة، وهى مظهر من مظاهر الايمان القوى، ولابد من وجودها فى كل مدنية.

ثم إن العرب لو كان نقلهم للعلم اليونانى نقلا آليا لكان علمهم به واحداً على مر القرون. ولكن العلم الذى ينمو ويتقدم لابد أن يكون علما حيا. والذى يقارن بين الكتب الطبية المتقدمة كالذخيرة والمتأخرة كالقانون، يجد فرقاً كبيراً وتقدماً رائعاً بين العهدين. ولو كان علمهم علماً ميتاً ماتم هذا التقدم. بل الواقع أن كتاب القانون على ما بينه وبين الطب اليونانى من الشبه الكبير يفوق من حيث تنظيمه ووضوحه ودقته كل ما كتب اليونانيون فى الطب.

الواقع أن كل مدنية لا بد أن تمر بعهد كلاسيكى هو عهد الابتكار والتنظيم الفكرى، وهو العهد الذى يتبين فيه العقل طريقه إلى التفكير المستقيم، والذى يتم فيه تنظيم الفوضى التى تنشأ عن الجهالة البدائية. والعهد الكلاسيكى فى كل مدنية هو عهد إيجاد القواعد، وتحديد معانى الألفاظ والمصطلحات، وتلمس المبادئ التى ينشأ عنها التفاهم بين أهل البيئة الواحدة. ومن هنا كان العنصر الغالب على كل تفكير كلاسيكى هو العناية بالتنظيم وتحديد كل شئ. وقد قام اليونان بخلق هذا العهد الكلاسيكى فى المدنية التى قامت فى حوض البحر الأبيض وأوربا.

ويتلو هذا العهد فى تاريخ كل مدنية عهد سكون يحسبه الناس خمولا أوانحطاطاً، وهو ليس كذلك بحال من الأحوال، إنما هو عصر الايمان بالعلم

الكلاسيكى ؛ إذ لا بد أن يصل الناس بهذا النوع من التفكير إلى أقصى غاياته قبل أن نتبين لهم حدوده أو خطؤه . ولا تبدأ ثورة الناس عليه إلا بعد أن يستنفدوا كل ما فيه من فائدة . ولا يمكن أن ينتقل العلم طفرة من الدور الكلاسيكى إلى العلم الموضوعى التحليلى الحديث ، بل لا بد من استيعاب الفكر للعقلية الأولى حتى يصل الناس منها إلى أقصى ما يمكن أن يبلغوه . وقد حمل العرب عبء هذا العهد الذى لا بد منه لنمو الفكر البشرى وتطوره . ومن سوء حظهم أن هذا الدور ليس باهراً وليس فيه من الانتاج الايجابى المبتكر ما يساعد على تقديره حق قدره عند العلماء المعاصرين .

ولتطور المدنيات مظاهر أعمق بكثير من شرحنا هذا ، وأثر الواحدة فى الأخرى معقد جدا ، ولكنا أردنا التبسيط . وأبسط النظريات فى شرح التطور الفكرى العام أن ننظر إلى الفكر البشرى على أنه كائن حى واحد ، وأن أجزاء معينة منه تقوم بدور معين فى وقت خاص من أوقات النمو ، ويكون لكل جزء نصيب واضح جدا فى هذا التطور . فاذا كان اليونان قد قاموا بالدور الكلاسيكى فقد قام العرب بدورهم فى العهد الثانى الذى لم يكن بد من وجوده تهيئة للأذهان للدور الثالث الذى قام به الغربيون . ولم يكن لأحد هؤلاء أن يسبق الآخرين أو أن يقوم بدوره قبل أن يمهد له السلف طريق التقدم . ولا يمكن أن يعاب على العرب أنهم لم ينشأ بينهم تفكير لم يكن العقل البشرى مستعدا له حينذاك .

ولكن العرب أقبلوا على الفلسفة اليونانية بحماسة عجيبة وقوة فهم ، وبلغوا بها فوق ما بلغ اليونانيون أنفسهم . ولا يمكن أن يكون ذلك شأن من كل همه النقل . وليس عيباً أنهم لم يزيدوا فى علم اليونان كثيراً ولم يغيروا من طريقة تفكير هؤلاء ؛ فهو بطبيعته علم محدود . وكل علم كلاسيكى من طبيعته أنه لا يقبل الامتداد إلا إلى درجة محدودة .

ولو لم يوجد العرب لبدأت النهضة الأوربية فى القرن الرابع عشر من حيث بدأ العرب فى القرن الثامن الميلادى ، ولاضطر جاليليو أن يبدأ حيث بدأ جابر بن حيان ؛ إذ لابد لهذه الفلسفة القديمة أن تبلغ أقصى مداها قبل أن يزهد الناس فيها ليبدءوا عصراً جديداً . ومن الخطأ أن نظن أن جاليليو لو عاش فى القرن الثامن لقام بنفس العمل الذى قام به فى النهضة الأوربية ، بل الذى لا شك فيه أن عمل العلماء يتوقف

كله أو أكثره على العصر الذى يعيشون فيه .

ولعل هذا الشرح يدلنا على أن المدنية العربية ظاهرة طبيعية لم يكن بد من قيامها حين قامت ، وأن العرب قاموا بدورهم فى تاريخ الفكر البشرى بأقصى ما يكون من الحماسة والفهم والعلم ، وأنه لم يكن لهم أن يزيدوا فى العلم اليونانى إلا قليلا لأن ذلك لم يكن من أغراضهم ، وأنهم أبعد ما يكونون عن أن يكونوا مجرد ناقلين . والذين يفهمون تطور العقل البشرى حق الفهم لابد أنهم يدركون أن قيام العرب بشرح الفلسفة الكلاسيكية أمر هام جدا لم يكن منه بد قبل أن تتهيأ العقول للتفكير العلمى الحديث ، ولولاهم لتأخرت المدنية الحديثة قروناً عديدة .

محمد كامل حسين
أستاذ جراحة العظام بكلية الطب